التطبير

بين طقوس العشق وحدود العقل

بقلم: د. مصطفى سوادي جاسم/ باحث في مركز الفيض العلمي لاستطلاع الرأي
والدراسات المجتمعية

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

مقدمة

تعدّ مراسم عاشوراء من أهم الممارسات الدينية عند الشيعة الإمامية، إذ تُستَذكر فيها فاجعة كربلاء التي استُشهد فيها الإمام الحسين بن علي (عليه السلام) وأهل بيته وأصحابه، سنة 61 هـ، وتتنوع مظاهر الحزن والعزاء فيها، من اللطم والبكاء، إلى إقامة المواكب، وإعداد المجالس الحسينية، ومن بين هذه الممارسات ما يُعرف بـ"التطبير"، وهو ضرب الرأس بالسيوف أو السكاكين بشكل يؤدي إلى نزف الدم، وهي شعيرة مثار جدل واختلاف بين العلماء والجمهور الشيعي نفسه.

أصل التطبير ونشأته التاريخية

لا توجد أدلة تاريخية موثقة تؤكد ممارسة التطبير في القرون الهجرية الأولى، ويرجّح كثير من الباحثين أن التطبير ظهر في العهد الصفوي (القرن 10 هـ/16 م)، كوسيلة للتعبير عن الحزن والتضحية، وارتبط بانتشار الطقوس الشعائرية الجماهيرية، ومع مرور الزمن، أصبح التطبير تقليدًا عند بعض فئات الشيعة، لا سيما في العراق وإيران ولبنان والهند.

أكد المؤرخ إسحاق نقاش، في كتابه "شيعة العراق"، أن أول من أدخل التسوط أي ضرب الجسد بالسلاسل وشق الرؤوس بالسيوف إلى النجف الأشرف في العام 1919 هو الحاكم البريطاني الذي خدم سابقاً في كرمنشاه ونقل الممارسة إلى العراق عبر الهنود الشيعة بهدف إضعاف الحوزة حينها، وكشفت بريطانيا عن ذلك في العام 1970 في كتاب "دليل الخليج" لمؤلفه ج. لوريمر، و يعد التطبير طقساً مستحدثاً عند الشيعة ، وصلهم من وفود الزوار من الهنود والأتراك الشيعة ممن حملوا معهم هذه الطقوس إلى كربلاء أثناء زيارتهم لضريح الإمام الحسين عليه السلام .

نقل المفكر علي شريعتي في كتابه "التشيع العلوي والتشيع الصفوي" أن إسماعيل الصفوي حاكم إيران استحدث وزارة خاصةً بالشعائر الحسينية، وأرسل وزيرها إلى (القوقاز) للاطلاع على الشعائر الدينية حيث توجد فرقة مسيحية (من الأرثوذوكس) تقوم بالتطبير إحياءً ليوم يسمونه (مصائب المسيح) ففكر أنّ هذا ما يجب أن يفعله الشيعة لإحياء (مصائب أهل البيت عليهم السلام) ولا سيما (ذكرى عاشوراء) ودرس إمكانية نقل هذا الطقس الى إيران.

أما الشيخ مرتضى المطهري فالتقى مع شريعتي في التحليل وكتب في كتابه (الجذب والدفع في شخصية الإمام علي عليه السلام) إن التطبير والطبل عادات ومراسم جاءتنا من (أرثوذكس القوقاز) وهم مسيحيون وسرت في مجتمعنا كالنار في الهشيم.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

التطبير في العراق

تظهر من خلال بعض الدراسات روايتان حول مبدأ ظاهرة التطبير في العراق وهما:

الرواية الأولى: إن التطبير من العادات التي بدأت من قبل بعض الشيعة من القوقازيين، بحيث لمّا دخلت إحدى قوافلهم في كربلاء يوم عاشوراء وسمع أحد من أفراد تلك القافلة مصائب الإمام الحسين عليه السلام فقد تأثر بها، فقام بضرب رأسه بالسيف ثم تبعهم الآخرون في ذلك.

الرواية الثانية: انّ مبدأ هذه الظاهرة في العراق يعود إلى دخول بعض القافلات الشيعية من أتراك آذربيجان وتبريز وقفقاسيّة إلى العراق؛ لزيارة العتبات المقدّسة في النصف الأوّل من القرن التاسع عشر الميلادي وأقاموا هناك مجلس العزاء ولمّا قرأ الخطيب وقائع يوم العاشوراء باللغة التركية تأثروا بها فضربوا رؤوسهم بالقامات (وهو السلاح الذي كانوا يحملونه في السفر) وهذا ما جعل بعض رؤساء المواكب أن يتبعهم في ذلك.

وعليه يعتقد بعض الباحثين أن التطبير له أصل شيعي تركي، ولم يمارس العراقيون طقوساً مثل التطبير قبل القرن التاسع عشر، بل نشأ ذلك في العراق من قبل زوار أتراك من قزلباش وهم جاؤوا لزيارة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء، وقد يكون ما ذكر سابقا بعلاقته بالحاكم البريطاني.

التطبير في إيران

ظهر التطبير في إيران منذ عهد الدولة الصفوية ويعتقد علي شريعتي أن هذه الطقوس قد أخذت من طقوس المسيحيين في ذكرى استشهاد المسيح ففي كتابه التشيع العلوي والتشيع الصفوي يقول: «ذهب وزير الشعائر الحسينية إلى أوروبا الشرقية وكانت تربطها بالدولة الصفوية روابط حميمة يكتنفها الغموض، وأجرى هناك تحقيقات ودراسات واسعة حول المراسيم الدينية، والطقوس المذهبية، والمحافل الاجتماعية المسيحية، وأساليب إحياء ذكرى شهداء المسيحية، والوسائل المتبعة في ذلك، واقتبس تلك المراسيم والطقوس وجاء بها إلى إيران وبعد الثورة الإيرانية منع التطبير في جميع أرجاء؛ إذ منع السيد روح الله الخميني عام 1979 التطبير مؤقتًا إلى أن حرمه تمامًا كما حرم المرشد الأعلى في إيران السيد علي الخامنئي التطبير علنا وخفية عام 1994، بفتوى شهيرة في تسعينيات القرن الماضي، أكد فيها أن التطبير يسبب "وَهَن وإساءة للمذهب الشيعي" ويُستخدم سياسيّاً ضد الشيعة وليس الخلل بأصله التاريخي أو لأنه بدعة".

المنظور الفقهي للتطبير

أثار التطبير جدلًا واسعًا بين الفقهاء والمجتهدين الشيعة، ويمكن تقسيم مواقفهم إلى ثلاثة اتجاهات:

1. الاتجاه المؤيد

يرى أنصار هذا الاتجاه أن التطبير يدخل في إطار حرية التعبير عن الحزن والمواساة، ويعدونه نوعًا من الإخلاص في الولاء والتضحية، ويستدلون بقاعدة "الجزع على الحسين ع"، ويرونه من باب الشعائر التي تُبكي وتثير العاطفة، وان فيه ترويجاً للمذهب، وقد أفتى مجموعة كبيرة من العلماء بجوازه، مثل: المرجع الشيخ صافي الكلبايكاني، والشيخ الوحيد الخراساني،

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

وعبد الهادي الشيرازي، السيد جمال الدين الكلبيكاني، والسيد أبو القاسم الخوئي، والسيد محمد صادق الصدر، والسيد السيستاني، وهذا التجويز على وفق قاعدة (عدم الضرر المهلك أو المعطل لعضو أو لقوة من قوى الإنسان).

2. الاتجاه المعارض

يرى هذا الاتجاه أن التطبير يسيء إلى صورة التشيّع ويعطي انطباعًا سلبيًا عن الدين، كما يُعدّ مضرًا بالنفس، وهو مخالف لمبدأ حفظ النفس الذي يُعد من الضروريات الشرعية، وكذلك ليس له أي أصل شرعي وفقهي، وأشهر من تبنى هذا الموقف، الاخوند الخرساني، السيد محسن الأمين، محمد حسين كاشف الغطاء، وكذلك الإمام الخميني، والسيد محمد باقر الصدر، والمرشد الإيراني السيد علي الخامنئي، حيث أفتوا بتحريمه أو بعدم جوازه، معتبرين أن "كل ما يسيء إلى مذهب أهل البيت مرفوض شرعًا وعقلًا".

3. الاتجاه الوسطي أو المشروط

بعض الفقهاء تبنوا موقفًا وسطًا، يرون فيه جواز التطبير في حالات معينة، شريطة عدم إيذاء النفس بشكل مفرط أو تشويه صورة الدين، ويشترطون ستر الدم عن وسائل الإعلام وعدم استخدام الشعيرة في سياقات تضر بالمذهب.

التحليل الاجتماعي والثقافي

في المجتمعات الشيعية، ارتبط التطبير بعوامل عديدة:

- **الهويّة الجمعية:** لدى بعض المجتمعات، يُعدّ التطبير رمزًا للانتماء وهويّة دينية وثقافية، ويتوارثه الأبناء عن الآباء.
- **الرمزية العاطفية:** التطبير يُعد عند ممارسيه تفاعلًا جسديًا مع الألم الروحي لفاجعة كربلاء.
- القوة والصلابة: يرى قسم من المواطنين الشيعة ان التطبير هو كناية عن القوة والصلابة التي يتمتع بها الشيعة ومذهبهم.
- **الرفض الاجتماعي:** في المقابل، يرفض عدد متزايد من المثقفين والشباب التطبير، معتبرين أنه لا ينسجم مع قيم العصر، ويشوه صورة الدين، ويمكن استبداله بممارسات عقلانية أكثر.
- **البدائل المجتمعية المقترحة:** في ظل الجدل القائم، طُرحت بدائل تعبّر عن الحزن وتُبقي على حرارة العزاء دون الإضرار بالنفس أو الإساءة للمذهب، منها التبرع بالدم في يوم عاشوراء (وهو ما دعا إليه السيد الخامنئي، والشيخ اليعقوبي) وغيرهم.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

استغلال التطبير كثغرة بالجسد الشيعي

استغلال المخالفين للشيعة شعيرة "التطبير" لضرب المذهب الشيعي وتشويه صورته وتقليل شأن أتباعه، عبر أدوات متعددة إعلاميًا وعقائديًا وسياسيًا:

أولًا: التوظيف الإعلامي السلبي

1. اختزال التشيّع في ممارسات التطبير: إذ تقوم وسائل إعلام معادية للشيعة بتركيز عدساتها على مشاهد التطبير الدموية، لتُظهر أن التشيّع هو مذهب يقوم على العنف والطقوس الوحشية، ويتم استبعاد البعد العقلي والروحي في الفكر الشيعي – مثل التراث العلمي والكلامي والفلسفي – لصالح مشاهد التطبير الصادمة.
2. ربط التطبير بالخرافة والجهل: يتم الترويج لصورة أن الشيعة "يؤذون أنفسهم من أجل الحسين"، ويُصوَّر ذلك كدليل على الجهل والتخلف، لاسيما في بيئات علمانية أو سنيّة سلفية، وتوضع شعيرة التطبير في مقارنات إعلامية مع طقوس غير عقلانية في ديانات أخرى، لتصوير الشيعة كمجموعة خارجة عن السياق الحضاري.

ثانيًا: الاستثمار في الخطاب الطائفي

1. تعزيز خطاب "البدعة والانحراف": المخالفون يصفون التطبير بـ"البدعة المنكرة" التي لا أصل لها في الدين، ويتم الاستشهاد بها لاتهام الشيعة بتحريف الدين ومخالفة السُّنَّة، ويتم توظيف هذه الممارسات كذريعة لنفي انتماء الشيعة إلى الإسلام الحقيقي، لا سيما في خطاب الجماعات السلفية المتطرفة.
2. تغذية الانقسام السني-الشيعي: في كل موسم عاشوراء، تُستَغل صور التطبير لإثارة مشاعر الاستغراب أو الاستهزاء بين السنة، مما يعمّق الحواجز النفسية والاجتماعية بينهم وبين الشيعة، وقد يُستخدم التطبير كمبرر لتحريض المجتمعات على العنف أو المقاطعة ضد الشيعة، أو في أقله كأداة "شيطنة ثقافية".

ثالثًا: الاستخدام السياسي والأمني

1. تبرير القمع والتمييز: في بعض الدول، استُخدمت مشاهد التطبير لتصوير الشيعة كمجموعة خطرة على النظام العام، مما سهل مبررات القمع الأمني ضدهم، تُوظَّف هذه الممارسات في تقارير أمنية لتقديم الشيعة على أنهم جماعة "لا تتأقلم" مع قيم الدولة أو المدنية.
2. إضعاف الحضور السياسي للشيعة: التطبير يُستَغل لتقويض جهود النخب الشيعية الساعية للاندماج في المجتمع السياسي العام، بتصويرها أنها تنتمي لمجتمع "طائفي، ماضوي، دامي"، وحتى داخل بعض الأوساط الشيعية الإصلاحية، يُحرج هذا السلوك السياسيين الشيعة في الحوارات الوطنية أو الإعلامية.

خلاصة القول

لقد أصبحت شعيرة التطبير – على الرغم من كونها ممارَسة محدودة – أداة فعالة بيد المخالفين لضرب التشيع وتشويهه، خاصة في بيئة إعلامية موجهة وطائفية، لذلك، فإن كثيرًا من علماء الشيعة يطالبون بإعادة النظر فيها.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

حفاظًا على هيبة المذهب وسمعة الطائفة ورسالة الإمام الحسين (عليه السلام) ، التي هي أسمى من الطقوس الشكلية.

ويبقى التطبير ظاهرة معقدة تمثل تداخلًا بين العاطفة والدين والثقافة والسياسة، وبينما يتمسّك بعض الشيعة بها كشعيرة وجدانية، يرى آخرون أنها تحتاج إلى مراجعة فقهية وثقافية، وما بين التقديس والرفض، تظلّ مسألة التطبير محل نقاش حيوي داخل الفكر الشيعي، داعية إلى تجديد الفهم للشعائر في ضوء المقاصد العليا للشريعة والمصلحة العامة.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة

المراجع

1. إحسان الفضلي، فلسفة الشعائر الحسينية.
2. الأمين، محسن العاملي، أعيان الشيعة (رسالة التنزيه)، بيروت، دار التعارف للمطبوعات، د.ت.
3. الحسّون، محمد، قراءة في رسالة التنزيه (للسيد محسن الأمين)، قم، سعيد بن جبير، 1423ق.
4. الحيدري، إبراهيم، تراجيديا كربلاء، دار الساقي، بيروت، الطبعة الأولى، 1999م.
5. الخامنئي، السيد علي الحسيني، أجوبة الاستفتاءات، د.م، دار النبأ للنشر والتوزيع، ط 1، 1415 هـ/ 1995 م.
6. الخميني، روح الله، إستفتاءات الإمام والأمة، د.م، د.ن، د.ت.
7. الكربلائي، عبد الزهراء الحسيني، آراء العلماء في التطبير، قم، د.ن، د.ت.
8. المطهري، مرتضى، الملحمة الحسينية، بيروت، الدار الاسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، 1412 هـ/ 1992 م.
9. حسين، أنيس، ممنوعيت عزاداري، قم، د.ن، د.ت.
10. فتح الله، أحمد، معجم ألفاظ الفقه الجعفري، الدمام، مطابع المدوخل، ط 1، 1415 هـ/ 1995 م.
11. فضل الله، محمد حسين، حركية العقل الاجتهادي، تقرير: جعفر الشاخوري، بيروت، دارالملاك، د.ت.
12. كاشف الغطاء، محمد حسين، الفردوس الأعلى، بيروت، دار المحجة البيضاء، 2001 م.
13. معروف الحسني، هاشم، من وحي الثورة الحسينية، بيروت، دار القلم، د.ت.
14. مغنية، محمد جواد مغنية، تجارب محمد جواد مغنية، قم، طبع أنوار الهدى، د.ت.
15. مطهري، مرتضى، الإمام علي في قويته الجاذبة والدافعة، المترجم: جعفر صادق الخليل، بيروت، مؤسسة البعثة، الطبعة الثانية، 1412هـ.
16. نقاش، أحسان، شيعة العراق، سورية _ دمشق، دار المدى للثقافة والنشر، الطبعة الأولى، 1996م.
17. القمي، الشيخ العباس، منتهى الآمال في تواريخ النبي والآل، قم المقدسة، دليل ما، 1379 ش.

00964- 7710122232 Alfaidcenter2011@gmail.com العراق - بغداد - الكرادة